دلالة الغزال في الشعر الجاهلي

The significance of the deer in pre-Islamic poetry

أ.د. ضياء غني العبودي[1*]

نور ياسر[2]

جامعة ذي قار / العراق

thyambc@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2021/02/26 تاريخ القبول: 2021/09/13 تاريخ النشر: 2021/10/15

ملخص:

الغزال واحد من الحيوانات المؤثرة في الثقافة الإنسانية بشكل عام ،إذ تعددت حوله الأساطير و القصص التي ترتبط كل واحدة منها بشعب معين، ومن ثم فهي تحمل من ثقافة ورؤية تلك الشعوب للحياة الشيء الكثير،إلا أنّ الصفة المشتركة بينها التي تكاد الشعوب تتفق عليها هي الجمال ، فارتبط ذكره عادة والجمال وكان رمزا له ، ويأتي أحيانا رمزا للشفاء كما في الأساطير الصينية ، و نظرا لتأثيره على الإنسان ولظروف محددة جعله أحد معبوداته، وهذه النظرة لا تختلف عن بقية الشعوب الإنسانية ، ونجم عن هذه المكانة تعدد أسماء هذا الحيوان وصفاته ، الأمر الذي يدل على اهتمام الإنسان به فقد كان ملازما لأوصاف الشعراء . وجاء البحث ليجيب عن سر هذه المكانة في الموروث الثقافي الإنساني عامه ، ومكانتها الأسطورية الخاصة وكيف نظر الشعراء لهذا الحيوان ؟ وما هي الأبعاد الرمزية له ؟

الكلمات المفتاحية: غزال ، رمز ، جمال ، مقدس ، جاهلي.

Abstract:

The deer is one of the influential animals in human culture in general, as there are many myths and stories around it that each of them is related to a specific people, and then it carries a lot from the culture and vision of these peoples for life, but the common characteristic between them that peoples almost agree on is beauty His mention is usually associated with beauty and it was a symbol for him, and sometimes it comes as a symbol of healing, as in Chinese mythology, and due to its impact on humans and specific circumstances, he made it one of his deities, and this view does not differ from other human peoples, and this position resulted in the multiplicity of the names and characteristics of this animal, which is what It indicates the human interest in him, as it was inherent in the descriptions of the poets. The research came to answer the secret of this place in the human cultural heritage in general, and its legendary status How did poets view this animal? What are the symbolic dimensions of it?

Keywords: *symbol, beauty, sacred, pre-Islamic*

[*] المؤلف المرسل.

تمهيد :

أخذت الحيوانات مكانة وحيزا كبيراً في النصوص الجاهلية ، لدخولها في كثير من الفعاليات والطقوس الجاهلية ، ومن بينها الغزال أو الظبي الذي أكثر الشاعر الجاهلي من وصفه والتغني بجماله ،وقبل الولوج في دلالات هذا الحيوان نقف عند المعنى اللغوي ،الظبي في لسان العرب" الغزال و الجمع أضب وظباء و ظبي والأنثى ظبية و الجمع ظبيات بالتحريك وظباء وارض مظباة : أي كثيرة الظباء " [1]و المعروف أنّها تهجر الناس وهي من الحيوانات التي يمكن أن تدجن وتولد على صعوبة ذلك [2].

واختلفوا في الظباء فقال الكرخي :" أنها ذكور الغزلان والأنثى الغزال ، قال الإمام وهو المعتمد : وهذا وهم فإن الغزال ولد الظبية إلى أن يشتد ويطلع قرناه "[3] و قد تعددت أسمائها وألقابها انطلاقا من صفاتها " وتكنى الظبية أم الخشف وأم شادن وأم الطلا والظباء مختلفة الألوان و هي ثلاثة أصناف : صنف يُقال له الآرام وهي ظباء بيض خالصه البياض الواحد منها ريم ومساكنها الرمال ويقال إنّها ضأن الظباء لأنّها أكثر لحوما و شحوما و صنف يسمى العفر لونها احمر و هي قصار الأعناق وهي أضعف الظباء عدوا تألف الموضوع المرتفعة من الأرض و الأماكن الصلبة ..... وصنف يسمى الأدم طوال الأعناق والقوائم بيض البطون " [4]

والغزال حيوان حذر خائف وجاء "ان الجمع منها غزلة و غزلان مثل غلمة وغلمان و الأنثى بالهاء وقد أغزلت الظبية ، ظبية مغزل ، ذات غزل "[5]وقد تعددت المعاني لمادة غزل منها ما يرتبط بالصنف والصيد ومنها ما يرتبط بالطبيعة فقيل " إنَّ الغزالة :الشمس وقيل : هي الشمس عند طلوعها و يقال : طلعت الغزالة ....وقيل : هي الشمس إذا ارتفع النهار " [6]

الغزال في الموروث الإنساني القديم :

ابتكر الإنسان منذ وجوده علاقة رمزية تربطه بالطبيعة يستمد منها قوته وضعفه وأسباب مرضه وشفائه، فنجده ينسج أساطيره حول الأنهار والأشجار والحجارة وصولا إلى الحيوان صديقه الوحيد في الحركة والسفر، فكانت بعض الحيوانات آلهة تعبد ويخضع لها، ومنها الغزلان والظباء والأيل ، "والظبي حيوان يشبه الغزال وهو من الحيوانات المتجردة آكلة العشب ذي قرون مجوفة يغيرها سنويا وارتبط الظبي في الأساطير المصرية القديمة بالآلهة :انوبيس ، ،ست ، آوزيريس ، حوريس" [7].

فقد ظهر الإله ست في الرسومات القديمة على هيئة رجل برأس غزال ويمثل "إله الشر في الديانات القديمة حيث تقول الأسطورة إنّ الخنزير و الحمار وفرس النهر و غزال الصحراويات قد انحدرت جميعا من هذا الإله الذي كان في الأصل إلها خيرا لمصر العليا " [8]

أما في الديانات الهندوسية القديمة فقد ارتبط هذا الحيوان بالإله شيفا "الذي

كثيرا ما تصوره التماثيل الفنية الهندوسية برجل وسيم عاري لكنه يرتدي جلد غزال أو الجز" (9)

وكذلك ارتبط ذكره بالقرابين والأضاحي في كثير من المجتمعات والديانات "حيث ارتبط بشراب السوما المقدس عند الهنود الذي يصاحب تقديم القرابين والأضاحي كما انه الجواد الذي يمتطيه ماروت اله الريح " (10)

ولم تغفل الأساطير اليونانية ذكر هذا الحيوان في الحديث عن آلهتها فيذكر أن " الآلهة آرتميس عاقبت الصياد الذي رآها عارية وهي تستحم فأحالته الى أيل ثم مزقته كلاب مسعورة و عندما أبحر أجامتون بأسطوله إلى طروادة سال اليونان كاهنهم عن كيفية الآلهة آرتميس فأجاب بالتضحية بابنته اجامتون و عندماهموا بذبحها أنقذتها الآلهة ارتميس واستبدلت بها أيل " (11)

و في الأساطير المسيحية في العصور الوسطى " كانوا يعتقدون انه عندما يبلغ الأيل خمسين سنة من عمره يبحث عن أفعى ليقتلها ويأكلها ثم يذهب إلى أقرب بحيرة ليشرب الماء قدر استطاعته ليجدد قرونه لخمسين سنة أخرى فإن لم يجد الأيل الماء اللازم خلال ثلاثةأيام من قتله واكله للأفعى فلا بد أن يموت" (12)

واستمر تأثير الغزلان الأسطوري في الديانة المسيحية حتى القرون الوسطى " إذأصبح الظبي يرمز للإنسان بقرنين أحدهما يمثل العهد القديم والآخر يمثل العهد الجديد" (13)

الغزال في الموروث العربي القديم :

لم يختلف تعامل العربي مع هذا الحيوان عن غيره من الشعوب و الديانات الأخرى ، فكان موضع اهتمامهم إذ أكثروا من ذكره في شعرهم وخطابهم اليومي فكان رمزا للجمال والرقة والحسن و لاسيما سواد العين الذي طالما أغرم به العربي فسموا نسائهم بأسمائها وصفاتها "فكانوا إذا سموا امرأة بها خنساء فليس من الفطس و الخنس يريدون بل كأنهم قالوا مهاة أو ظبية " (14)

وقد بلغ من القداسة عندهم حد العبادة وارتبط ذكره بالقرابين والأضاحي والنذور التي كانت توهب للآلهة، و لكنها مع هذه القداسة " كانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنية تقول الرجل إذا بلغت كذا وكذا وكذلك غنمي ذبحت عند الأوثان كذا وكذا عتيرة و العتيرة من نسك الرجبية والجمع عتائر وهي من الظباء ، فإذا بلغت إبل أحدهم أو غنمه ذلك العدد استعمل التأويل وقال إنّما قلت إنّي اذبح كذا وكذا شاة والظباء شاء ، كما أنّ الغنم شاء فيجعل ذلك قربانا شاء كله كما يصيد من الظباء "

[15]ولشدة سحر العربي بهذا الحيوان حاك حوله الكثير من الأساطير والحكايات فقد قال إنّه منحيوانات الجنة أو مطايا الجن[16] .

ويكاد يتفق الشعراء في تناولهم لهذا الحيوان في قصائدهم على صورة واحدة "بتصويرها و هي متأخرة عن الأصحاب لتكون منعزلة وفي هذه الحالة تبين محاسنها لأنّها لو كانت في القطيع لم يستبن منها وكانوا يطلقون عليها الخذول" [17]

وقد كانت العرب لا تسمح بصيده في أماكن معينة مثل مكة فكان فيها آمن اذ يقول الناس :" آمن من حمام مكة ومن غزلان مكة ...وهذا شائع على جميع الألسنة لا يرد ذلك أحد ممن يعرف الأمثال و الشواهد ....ولو أنّ الظباء ابتليت ممن يتخذها بمثل ما ابتليت به الحمام ثم ركبوا المسلمين في الغزلان بمثل ما ركبوا في الحمام لساروا في ذبح لغزلان كسيرهم في ذبح الحمام " [18].

إلا أنّهم كانوا يصطادونه في غير هذا الموضع بالحبال والنار" التي توقد للظباء وصيدها لتغشى إذا أدامت النظر وتجعل ورائها " [19].

وقد ارتبط هذا الحيوان بذكر المحبوبة وكان رمزا لها في الذاكرة العربية فقد ذكر ابن خلكان:"إنّ كثير عزة دخل يوما على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك : هل رأيت اعشق منك ؟ قال : نعم بينما أنا أسير في فلاة إذ أنا برجل نصب حباله وهو جالس فقلت له ما أجلسك ها هنا ؟ قال أهلكني وقومي الجوع انصب حبالي هذه لأصيب لهم شيئا .....فقلت أرأيت أن أفهمت منك أتجعل لي جزءا من صيدك ؟ قال نعم فبينما نحن كذلك إذ رق وقعت ظبية في حباله فبدرني إليها فحلها وأطلقها فقلت :ما حملك على ذلك ؟ قال رق قلبي لها لشبهها بليلى " [20]

دلالاتها في الشعر الجاهلي :

يعبّر الشاعر عن اللاوعي الجمعي وأفكار مجتمعه باستعمال رموز غارقة في القدم تكاد تشترك بها الثقافات الأخرى على اختلافها، وبعيد عن إيمانه بها وعدمه فهو يستعين بها في خطابه الأدبي بوصفها جزءاً من الثقافة المجتمعية السائدة ، ومنها الظباء فقد تعددت رموزها ودلالاتها في الشعر الجاهلي، منها ما هو متفق عليه ومتعارف لدلالتها على الجمال و الرقة فأكثروا من التشبيه بها لسواد عينيها وحدة نظرتها ورشاقتها و بياضها وألوانها وسلوكها الشبيه بسلوك الحبيبة البعيدة النوال ، ومنها ما اختص به شاعر دون غيره لرمز ارتبط بحياته الخاصة ،إلّا أنّ بعضهمأعرض عن ذكر هذا الحيوان في خطابه الأدبي كالشاعر عمرو بن كلثوم في حين تعددت ألفاظه ورموزه في شعر آخرين أمثال الأعشى ولربما ارتبط ذلك ببيئة الشاعر وطبيعة حياته وثقافته .

1- رمز الأمومة والحنان :

انفرد الأعشى في استخدامه للغزال في لوحاته التشبيهية في مشاهد طويلة نوعا ما تصل أحيانا إلى سبعة أبيات :

كَخَذولٍ تَرعى النَواصِفَ مِن تَث ... ليثَ قَفراً خَلا لَها الأَسلاقُ

تَنفُضُ المَردَ وَالكَباثَ بِحِملا ... جٍ لَطيفٍ في جانِبَيهِ اِنفِراقُ

في أَراكٍ مَردٍ يَكادُ إِذا ما ... ذَرَّتِ الشَمسُ ساعَةً يُهراقُ

وَهيَ تَتلو رَخصَ العِظامِ ضَئيلاً ... فاتِرَ الطَرفِ في قُواهُ اِنسِراقُ

ما تَعادى عَنهُ النَهارَ وَلا تَع ... جوهُ إِلّا عُفافَةٌ أَو فُواقُ

مُشفِقاً قَلبُها عَلَيهِ فَما تَع ... دوهُ قَد شَفَّ جِسمَها الإِشفاقُ

وَإِذا خافَتِ السِباعَ مِنَ الغي ... لِ وَأَمسَت وَحانَ مِنها اِنطِلاقُ

رَوَّحَتهُ جَيداءُ ذاهِبَةُ المَر ... تَعِ لا خَبَّةٌ وَلا مِملاقُ(21)

يرسم الأعشى مشهد الظبية منفردة عن القطيع تبعثر العشب والثمار الناضجة بقرونها اللطيفة، لشدة سحر الشاعر برقة هذا الحيوان يصف اصلب ما فيه باللطافة انطلاقا من صورة الأم التي لا تفارق طفلها الضعيف إلا لحاجة لفرط حنانها ورأفتها وهو يصوره فاتر الطرف ضئيلا لا تؤخر رضاعتهإلى أن يجتمع فيها اللبن ، ويظهر اهتمام الشاعر بمشهد الأمومة فيكرر هذه الصور في قوله :

رَخصٌ أَحَمُّ المُقلَتَينِ ضَعي ... فُ المَنكَبَينِ لِلعِناقِ زَجِل

تَعُلُّهُ رَوعى الفُؤادِ وَلا ... تَحرِمُهُ عُفافَةً فَجَزَل

تُخرِجُهُ إِلى الكِناسِ إِذا اِل ... تَجَّ ذُبابُ الأَيكَةِ الأَطحَل

يَرعى الأَراكَ ذا الكَباثِ وَذا ال مَردِ وَزَهراً نَبتُهُنَّ خَضِل

تَخشى عَلَيهِ إِن تَباعَدَ أَن تَغنى بِهِ مَكانَهُ فَيَضِل

ذَلِكَ مِن أَشباهِ قَتلَةَ أَو قَتلَةُ مِنهُ سافِراً أَجمَل(22)

فيرسم لنا الأعشى مشهدا يفيض بالرقة والحنان والرأفة التي لا تناسب إلّا قلب الأم حيث يصور هذه الظبية وهي تنادي طفلها بصوت رقيق سهل ،ويتحرك ليصف هذا الطفل بأجمل الصفات التي تجعل أي قلب يرق إليه ،ثم ينتقل إلى الأم وامتثالها لعاطفتها تجاه هذا الطفل فتراها روعة الفؤاد تفزع من كل ما تشعر انه يهدد طفلها، فهي حينما تطعمه وتسقيه لا تكون مستقرة حتى يكون بأمان ، و يكرر الشاعر تأكيده على تضحية هذه الأم في أكثر من موقف خلال لوحته الوصفية لمشاهد الأمومة للظباء و أولادها ،فهي لا تمنعه لبنها إلّا ريثما يجتمع فيها مرة أخرى بعد أن يشرب أكثره إلى أن يشتد ويجزل ، وهذا المشهد لا يخلو من العنصر اللوني اذ نرى انه يصور لنا النبات الذي ترعاه هذه الأم وطفلها بأطوار مختلفة خلال مراحل نموه لتشمل لنا الصورة عناصر الطبيعة الثابتة التي لم يغفلها الشاعر أثناء انشغاله بتعقب حركة تلك الأم ، فالتفت إلى الزهر والنبات المبلل بماء الندى ، هذه الأبيات تجعل المتلقي يبحر مع الأعشى في رحلة خياله ويحن ويرق قلبه لتلك الأم حتى كأنه يراها إلى أن يستيقظ الأعشى من سكرته ليجرك خلفه إلى من هي تفوق هذه الظبية رقة وحنانمحبوبته " قتله " أو أنها أجمل منها .

الناظر في هذه الأبيات يجد أن الأعشى اعتنى بالجانب المعنوي أكثر من المادي فهو لم يشبه بجمال عينيها وعنقها ورشاقتها إنما كان مأخوذا بعاطفتها وحنانها لطفلها كأنه طفل يتيم يحسد ذلك الشادن لاهتمام أمه به ، فيقول في قصيدة أخرى:

وَما أُمُّ خِشفٍ جَأبَةُ القَرنِ فاقِدٌ عَلى جانِبَي تَثليثَ تَبغي غَزالَها

بِأَحسَنَ مِنهَ يَومَ قامَ نَواعِمٌ فَأَنكَرنَ لَمّا واجَهَتهُنَّ حالَها(23)

يعود الشاعر ليصور مشهدا آخر مستعينا بظبية رمزا للأمومة ، فهذه الأم على صغرها حيث يصفها الأعشى إنّها" جابت القرن" أي الظبية أول ما يظهر قرنها إلا إنها حزينة لفقدها ولدها وهي تجوب الوادي بحثا عنه،وبعد أن يتملكك الحزن لمصيبة هذه الأم ينبهك الأعشى ليقول إنّها ليست أكثر حزنا من حبيبته لفراقه ، وقد توشحت بالحزن والألم عليه ، يستمر الأعشى برسم صوره التي تختلط

فيها عاطفة الأم بعاطفة الحبيبة ليوازن ويفاضل بينهما وربما انفرد بذلك عن غيره من الشعراء في استخدامهم للظباء في التشبيهات التي لا تتعدى الماديات .

2-رمز الجمال :

يتفق أغلب الشعراء على رمزية الغزال للجمال فارتبطت أسماءه وصفاته بغزلياتهم مثل " عيناء " أي واسعة العين و "جيداء " أي طويلة العنق وغيرها من الصفات التي اكتسبها الشاعر من الثقافة المجتمعية السائدة ومنه قول المهلهل بن ربيعه :

فترى الكواعب كالظباء عواطلا إذا حان مصرعه من الأكفان (24)

حيث شبه نسائه الكواعب البالغات الجميلات بالظباء إلا أنّهن عواطل بلا زينة لحزنهن ومنه قول أبي اللحام التغلبي يمدح عبدالله بن عمرو بن كلثوم في مقدمة قصيدته :

أَيَئِستَ مِن أَسماءَ أَم لَم تَيأَسِ وَصَرَمتَ شَبكَ حبالها المُتَلَبِّسِ

لا تَحزُنَنكَ فَإِنَّها كَلبِيَّةٌ كَالرِّئمِ يَبرُقُ وَجهُها في المكنِسِ(25)

استعان الشاعر برسم صورة التشبيه بلون هذه الظباء فشبه حبيبته بالغزال الناصع البياض يبرق وجهه وهو في مخبئه كرمز الجمال وإشراق وجهه المحبوبة ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

وَأَذكُرُ سَلمى في الزَمانِ الَّذي مَضى كَعَيناءَ تَرتادُ الأَسِرَّةَ عَوهَجِ(26)

نجد أنه شبه المحبوبة بالغزال العيناء كرمز لسعة العين و جمالها وهو كثير في كلام العرب و شعرهم وفي موضع آخر يشبه زهير عنق المحبوب بعنق الغزال كرمز لجماله ورقته وشدة بياضه :

فَأَمّا ما فُوَيقَ العِقدِ مِنها فَمِن أَدماءَ مَرتَعُها الخَلاءُ(27)

فيصفه بأدماء كرمز للون الأبيض والبشرة البيضاء ويستخدم زهير صفات الغزال كرمز لجمال محبوبة أخرى و هي الخمر :

ذاكَ وَقَد أَصبَحُ الخَليلَ بِصَه باءَ كُمَيتٍ صافٍ جَوانِبُها

مِثلِ دَمِ الشادِنِ الذَبيحِ إِذا أَتـأَقَ مِنها الراوُوقَ شارِبُها(28)

معتمدا على العنصر اللوني أيضا يشبه خمرته بدم الغزال الصغير الذبيح رمزا لجمال لونها الأحمر، في حين يوظف شاعر آخر مثل الأعشى ما يتغنى به العرب من رموز جمال الظباء لإبراز جمال محبوبة أخرى للإنسان العربي و هي الفرس :

سنَابِكهُ كَمَدَارَى الظِبَا ءِ أَطْرَافُهُنَّ على الأرضِ شُمَّ(29)

حيث شبه مقدمة الحافر بقرون الظباء ترسم على الأرض بأطرافها لأن القرون تعد رمزا للقوة والصلابة فضلا عن الجمال ، وفي موضع آخر يشبه الأعشى النساء وهن على الهوادج من فوق الجمال بالظباء في صورة تمتزج بها الطبيعة بالسحر:

أَصاحِ تَرى ظَعائِنَ باكِراتٍ عَلَيها العَبقَرِيَّةُ وَالنُجودُ

كَأَنَّ ظِباءَ وَجرَةَ مُشرِفاتٍ عَلَيهِنَّ المَجاسِدُ وَالبُرودُ(30)

أما عن جمال عيون الظباء فإن الأعشى قد شبه به بشكل مميز يفيض بالإحساس :

صادَت فُؤادي بِعَينَي مُغزِلٍ خَذَلَت تَرعى أَغَنَّ غَضيضاً طَرفُهُ خَرِقا(31)

إذ شبه بعيون الغزال الأم التي تنظر إلى طفلها برقة وحنان فارتبط ذكر الغزالة عند الأعشى بصورة أم وطفلها ، فنراه حينما يتحدث عن جيد غزالة في صورة رقيقة وهي تمده لتناول لطفلها ثمار الأراك فيبدو العنق هنا أكثر طولا واستقامة وهي من صفات جمال المرأة :

وَجيدِ مُغزِلَةٍ تَقرو نَواجِذُها مِن يانِعِ المَردِ ما اِحلَولى وَما طابا(32)

في حين يشبه النابغة طرف ثوب المحبوبة بمشهد الغزلان :

وَالراكِضاتِ ذُيولَ الرَيطِ فانَقَها بَردُ الهَواجِرِ كَالغِزلانِ بِالجَرَدِ(33)

في صورة وهي تركض بأرض جرداء كرمز لجمال تلك المحبوبات وهن راكضات يجرن أطراف ثيابهن .

3-الرمز الاجتماعي:

تعد المقدمة من المفاتيح المهمة للقصيدة العربية التي كثيرا ما كانت تبث للمتلقي صور عن الحياة في العصر الجاهلي ولا سيما الاجتماعية من خلال البكاء على الاطلال و تصوير رحلات الصيد و مشاهد الطبيعة وأبطال تلك المقدمات لم يكونوا من البشر فقط بل تنازعها الحيوانات تلك البطولة يقف في مقدمتها الإبل و البقر الوحشي والظباء والكلاب وغيرها وفي ذلك يقول زهير بن ابي سلمى :

وَدارٌ لَها بِالرَقمَتَينِ كَأَنَّها مَراجِعُ وَشمٍ في نَواشِرِ مِعصَمِ

بِها العَينُ وَالآرَامُ يَمشينَ خِلفَةً وَأَطلاؤُها يَنهَضنَ مِن كُلِّ مَجثِمِ(34)

ففي هذا المشهد يصور زهير الغزلان و بقر الوحش و أولادهن ينامون إذا أكملن رضاعتهم دلالة على البقاء والاستقرار او الاستمرار في المكان حيث تأمن فيه هذه على اولادها كرمز لخلاء المكان من أهله وأنّه أصبح دار للوحش ، ليس الأمان فقط وإنّما في محاولة لإعادة الحياة الى الطلل بعد أن رحلت عنه المرأة ونحن نعرف أنّها من رموز الحياة وايجاد بديل للحياة الانسانية بالحياة الحيوانية ، والى مثله ذهب امرؤ القيس في مقدمة معلقته ليقدم لنا مشهد آخر يحمل ذات الرمزية :

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

فَتوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَسمُه لِما نَسَجَتها مِن جَنوبٍ وَشَمأَلِ

تَرى بَعَرَ الآرامِ في عَرَصاتِه وَقيعانِها كَأَنَّهُ حَبُّ فُلفُلِ(35)

لم يذكر الشاعر الآرام صراحة بل ذكر بعر الآرام كرمز على قفر المكان وخلوه و كأن الحياة قد رحلت حتى عن الوجود الحيواني لا سيما أن الطلل في رأي بعض النقاد في معلقة امرئ القيس هو رمز للمملكة التي سقطت على يد قبائل اسد فكان الموت واضحا في اطلالها ، وفي معلقة طرفة ابن العبد نجد حضور الظباء ايضا:

وَفي الحَيِّ أَحوى يَنفُضُ المَردَ شادِنٌ مُظاهِرُ سِمطَي لُؤلُؤٍ وَزَبَرجَدِ

خَذولٌ تُراعي رَبرَباً بِخَميلَةٍ تَناوَلُ أَطرافَ البَريرِ وَتَرتَدي(36)

نجد أنه شبه بالظباء حبيبته في صدر البيت يرسم صورة هذا الظبي حتى يجعلك تتخيله ماثلا أمامك ثم يكشف عن تفاصيل " لؤلؤها و زبرجدها"تجعل المتلقي يربط بين صورة الظبي و جمال محبوبة الشاعر ويعود ليكمل صورته التشبيهية بتفاصيل أكثر تتعاضد فيها الطبيعة والمكان من أجل أن يعمق دلالة الظباء في صورته الشعرية ، ومثلها معلقة لبيد بن ربيعة :

مِن كُلِّ سارِيَةٍ وَغادٍ مُدجِنٍ وَعَشِيَّةٍ مُتَجاوِبٍ إِرزامُها

فَعَلا فُروعُ الأَيهُقانِ وَأَطفَلَت بِالجَهلَتَينِ ظِباؤُها وَنَعامُها

وَالعَينُ ساكِنَةٌ عَلى أَطلائِها عوذاً تَأَجَّلُ بِالفَضاءِ بِهامُها(37)

يرسم لنا الشاعر صورة مليئة بالحركة تتظافر فيها عناصر الطبيعة الثابتة والمتحركة لتصف لنا ذلك المكان وقد أمطرت سماؤه ليلا مطرا غزيرا حتى نبتت من أرضه واستوطنتها الظباء حتى استقرت بها و توالدت هي وحيوانات أخرى انظمت لها في هذا المكان الخصب وهي النعام و قد ارتبط ذكر الظباء في هذه اللوحة بدلالة المكان الصالح للعيش بعد ترك مسكنه لسنوات وهو رمز اجماعي للبديل الانساني .

أمّا المرقش الأكبر فيقول :

هلْ تعْرِفُ الدَّارَ عَفا رَسْمُها إلاَّ الأَثافِيَّ ومَبْنى الخِيَمْ

أَعْرِفُها داراً لأَسْماءَ فالد دَمْعُ عَلى الخَدَّيْنِ سَحٌّ سَجَمْ

أَمْسَتْ خَلاءً بعدَ سُكَّانِها مُقْفِرَةً ما إنْ بها مِنْ إرَمْ(38)

حيث يشترك مع ما قال به أصحاب المعلقات من ذكر هذا الحيوان كرمز اجتماعي دلالة على قفر ذلك المكان و هناك من الشعراء من اتخذ منه رمزا للسرعة في الجري لاسيما الصعاليك في تصوير فرارهم الذي لا يرون فيه غضاضة فهو يدخل في الشجاعة والصبر و الحيلة ،يقول ابو خراش الهذلي واصفا سرعته :

فو الله ما ربداء او علج عانة اقب و ما ان تيس ايل محمم

وثبت حبال في مراد بروده فأخطاه فها كفاف مخزم

بأجود مني يوم كفت عاديا واخطاني خلف الثنية اسهم(39)

مثل ما ارتبط ذكر جمال الغزلان والظباء في الشعر بجمال المرأة ارتبط ذكر سرعتها بالرجل لكنها لا ترمز لمطلق الرجال بل من كانت صفته العدو وهم الصعاليك .

4-الرمز الديني :

نظرا لارتباط العربي بحيواناته فقد كان لها دوراً في معتقداته وما يدين به ، فأحيانا كانت الآلهة ذاتها وأحيانا كانت جزءا من الطقوس الدينية لذا فقد اكتسبت بعض تلك الحيوانات قداسة عند العربي ومنها الثعابين والظباء وغيرها ، وهذه الحيوانات لها ارتباط بما يتفاءلون بهو يتشاءمون منه و الظباء كانت مما يتفاءلون به لذا نرى لها ذكرا في الحديث عن السانح و البارح في الخطاب الشعري الجاهلي ومنه قول زهير:

فَلَمّا أَن تَحَمَّلَ آلُ لَيلى جَرَت بَيني وَبَينَهُمُ الظِباءُ

جَرَت سُنُحاً فَقُلتُ لَها أَجيزي نَوىً مَشمولَةٌ فَمَتى اللِقاءُ(40)

حيث يدخل هذا الحيوان ضمن أهم معتقدات الجاهلي وهي (التطير) وكانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح والعرب تتطير من البارح و تتفاءل بالسانح ، وهنا يتفاءل الشاعر بالظباء لعلها تكون دليل على قرب لقاء محبوبه او عودته .والى جانب الحيوانات كانت للعرب آلهة مختلفة مما يحيط بهم من طبيعة فعبدوا القمر والشمس واستمرت تلك العبادات مدة طويلة حتى أصبحت جزءا من الثقافة الاجتماعية و صورة ثابتة في اللاوعي الجمعي ويمكن أن نجد لها آثار في شعرهم تحت ألفاظ مختلفة منها لفظ (الغزال) فيقول امرؤ القيس :

جَعَلنَ حَوَايَا وَاقْتَعَدنَ قَعَائِداً وخففنَ من حوك العراقِ المنمقِ

وَفَوْقَ الحَوَايَا غِزْلَة وَجَآذِرٌ تضَمّخنَ من مِسكٍ ذكيّ وَزَنبَقِ(41)

إذ استعمل الشاعر لفظ (غزلة) للدلالة على الشمس كرمز ديني و قد ورد في لسان العرب " إن الغزالة: الشمس وقيل هي الشمس عند طلوعها يقال طلعت الغزالة ولا يقال غابت الغزالة و يقال غربت الجونة و إنّما سميت جونة لأنّها تسود عند الغروب و يقال الغزالة الشمس إذا ارتفع النهار و قيل الغزالة عين الشمس وغزالة الضحى و غزالاته بعدما تنبسط الشمس وتضحي وقيل : هو أول الضحى إلى ما مد النهار الأكبر حتى يمضي من النهار نحو خمسة يقال أتيته غزالات الضحى " (42)

إنّ تعدد مذاهب العرب في لفظ الغزالة و أي وقت هو يدل على كثرة استعمال اللفظ وتشعب هذا الاستعمال إذ نجد له انعكاسا في الشعر العربي ومنه قول انشده أبو عبيد لعتيبة بن الحرث اليربوعي :

تروحنا من اللعباء عصرا فـأعجلنـا الغـزالـة ان تـؤوبـا

حيث ورد لفظ الغزالة كرمز للشمس وهي إحدى معبودات الإنسان الجاهلي و القرينة التي تؤكدهذه الرمزية هي ذكر الأوقات ومنه قول ذو الرمة :

فأشرفتُ الغزالة رأسَ حوضى أُرَاقِـبُـهُمْ وَمَـا أُغْـنَـى قـبَـالاَ (43)

والغزالة في بيت ذي الرمة هنا لفظ دال على الشمس والى ذلك ذهب خالويه :" الغزالة في بيت ذي الرمة الشمس و تقديره عنده فأشرقت طلوع الغزالة و رأس حزوى مفعول أشرقت على معنى علوت أي علوت رأس حزوى طلوع الشمس وجمع غزالة غزالات قال :

غَزالاتِ الضُّحى هل مِنْ فَتًى يَسُوقُ بالقوم، دَعَتْ سُلَيْمى دَعْوَةً(44)

وربما استعمل العربي لفظ غزالة لإشارة لحالة من حالات الشمس تحرزا من ذكر الشمس بلفظها بصفتها إله المعبود و له ما له من القداسة ، و ربما ارتبط ذلك في المتخيل العربي بالغزال الحيوان الجميل و ارتباطه بجمال النساء وربما كان ذكرها في شعرهم أيضا كرمز ديني للآلهة التي تعبد وقتها .

الخاتمة :

ارتبطت بعض الحيوانات بأساطير مختلفة وأكثرها ذات بعد ديني في المتخيل العربي ومن ثم فقد انعكس ذلك على الأدب ولعل من أبرز تلك الحيوانات الغزال فقد ارتبط ذكره في الشعر العربي القديم بعدة رموز إلّا أنّ الشعراء يكاد يتفقون على رمزه لجمال المرأة العربية وكذلك الرمز الاجتماعي دلالة على البيوت التي هجرها أهلها مع وجود بعض الرموز الخاصة التي انفرد بها بعض الشعراء مثل رمزه للحنان والأمومة مثل ما نجده عند الأعشى فضلا عن الرمز الديني الذي فرضه استعمال اللفظ .

الهوامش:

(1) لسان العرب ، ابن منظور مادة غزل

(2)كتاب الحيوان ، الجاحظ ، ج 6 : 23

(3)حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين محمد بن موسى الديميري ،ج 3 :50

(4)المصدر نفسه : 51

(5)لسان العرب ، ابن منظور : مادة غزل

(6)المصدر نفسه المكان نفسه

(7)معجم الديانات وأساطير العالم ، إمام عبد الفتاح إمام : 94،المجلد الأول

(8)المصدر نفسه ، المجلد الثالث : 239

(9)المصدر نفسه : 250

(10)المصدر نفسه ، المجلد الأول :94

(11)المصدر نفسه ، المجلد الثالث : 270

(12)المصدر نفسه المكان نفسه

(13)المصدر نفسه ، المجلد الأول :94

(14)كتاب الحيوان :أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،ج 4 :399

(15) المصدر نفسه، ج 9 :18

(16)المصدر نفسه ، ج6 :46

(17)الطبيعة في الشعر الجاهلي ، نوري محمود القيسي ، ط1 ،1970 :143

(18)كتاب الحيوان :أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ج 3 :193

(19) المصدر نفسه ج4: 484

(20)حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين محمد بن موسى الدميري ، ج 3 :50

(21) ديوان الأعشى الكبير الكبير ميمون بن قيس :209-210

(22)المصدر نفسه : 275

(23)المصدر نفسه : 343

(24)ديوان المهلهل بن ربيعة ، شرح وتقديم طلال حرب : 86

(25)ديوان عمرو بن كلثوم ، جمعه و حققه و شرحه إميل بديع يعقوب :111

(26)ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرحه و قدم له علي حسن عافور : 54

(27)المصدر نفسه :14

(28)المصدر نفسه : 28

(29)ديوان الأعشى ميمون بن قيس :3

(30)المصدر نفسه :322

(31)المصدر نفسه :365

(32)المصدر نفسه 361

(33)ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق و شرح كرم البستاني: 34

(34)ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرحه و قدم له علي حسن عافور :102

(35)ديوان امرؤ القيس 35

(36)ديوان طرفة بن العبد :25. 26

(37) شرح ديوان لبيد بت ربيعة :298

(38)الطبيعة في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي : 143

(39)المصدر نفسه :145

(40)شعر زهير الأعلم الشمنتري :124

(41)ديوان امرؤ القيس : 131

(42) لسان العرب مادة: شمس

(43)لسان العرب : مادة : شمس

(44)المدر نفسه المكان نفسه.

المصادر:

1. . حياة الحيوان الكبرى ، محمد بن موسى بن عيسى الدميري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1424 هـ .
2. . ديوان أمرؤ القيس ، تحقيق : أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، 1984 .
3. . ديوان الأعشى الكبير، تحقيق : محمد حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 1950
4. . ديوان زهير بن ابي سلمى ، تحقيق : علي حسن فاعور ، دار الكتب العملية ، 1988.
5. . ديوان طرفة بن العبد،درية الخطيب ولطفي الصقال ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،2000
6. . ديوان عمرو بن كلثوم ، تحقيق : اميل يعقوب ، دار الكتاب العربي ، 1991.
7. . شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، تحقيق احسان عباس ، الكويت ، 1962.
8. . ديون المهلهل ، شرح طلال حرب ، الدار العالمية ، د.ت.
9. . ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق : كرم البستاني ،دار صادر، بيروت ، 1963.
10. . الطبيعة في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي ، دار الارشاد ، بيروت ، 1970.
11. . كتاب الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصطفى البابي الحلبي ، 1965،
12. . لسان العرب ، ابن منظور ، بيروت ، بيروت ، د. ت.
13. . معجم الديانات وأساطير العالم ، د. إمام عبد الفتاح ، مكتبة مدبولي، مصر، 1995.